ريتشارد

متشيغان .. ذلك الشارع التناقض ... لا يعرف هويتُهُ! ألخريف يُطلُّ عليه كصورةٍ فوتوغرافيةٍ سوداء وبيضاء، وحتى عندما يتحرك، تبان الحياة فيه كأشباحٍ ملونةٍ في شاشة فيلمٍ أمريكيٍ قديمٍ من الثلاثينات يحتاج الكثير من القصقصة. وكأن لغة الأشياء فيه لم تتكون بعد!

تصطف البنايات في الشارع، والذاكرة كالشفق. والجغرافيا الجديدة للأرض المسطحة توحي بإنشطار المكان وبالجيولوجيا الجديدة لعصر الألكترون. أما أنا ... فأمشي كالمذهول على أرصفة ذاتي، على ذلك الخط الرفيع الذي يضعني دائماً على حافة الوعي. تماماً ما بين خطر المساحة المنكشفة على صرصارٍ مشردٍ في باحات المكان وأمن الزاوية العمق التي يركض لاهثاً إليها. حتى بعض السناجب بدأت تعرفني، وتركض خلفي كمسبحة منفولة، تأمل أن أُعطيها بضع حباتٍ من الفستق تختزنها لأيام الشتاء القادمة. ومتشيغان ينظر إلينا بإزدراءٍ، نحن العابرين من تحت إبطيه كرائحةٍ غير مألوفة، ويضحك بسخريةٍ وكأنه يقول بصوت جهور: "لا بد أن تمروا من هنا." وأتخبط أنا قليلاً بعد سماع ذاتي المهووسة بحالات المكان وإسقاطاته ثم أعود لأرصفة الذات وأمشي نحوه، في قلبِه، ذلك الذي لا يعترف بأرصفة الذات! بل يصنعها! هو لا يعرف أن مسطّح الشارع يبان كأدراجٍ تتهاوى في أواسط الوعي حيث تسطُع تلك الممرات البرتقالية في قلبه وفي ظلمة شوارعه الخلفية، تلك التي لا تكاد تبان إلا برؤيا! وتُطْحَن المفاهيم بلا رؤيا! كعصاةٍ أجد نفسي أمسكها في سيركٍ على حبلٍ من صلصالٍ، يلين الحبل بعد الخطوة الثالثة فيصبح التوازن صعباً. وحينها يصبح التمييز بين الليّن والهش متعذراً، كالتمييزِ بين ظهور الأشياء في الروح وأصل الحواس.

الوجوه باردة، وإحداهن تقف على زاوية شارع جانبي تنتظر أحداً آخر يلتقطها نحو الشهوة أو العبور للأمكنة الأخرى! وريتشارد العجوز، اللابيت له، يُطعم السناجب فُستقاً غير مقشر. فمنذ عشر سنوات تلتقطه الشهوة هو الآخر بأن يُشْبِعَ من لا مسكن له! فيكاد أن يشبع ذاته ويعبر بها نحو اللاأمكنة! أمكنتي. لم يتركه وحده متشيغان ليكون، ولا ذلك الحبل القرمزي الفظ المتمايل مع رياح اللحظة. ويظل ريتشادر هو اللون الوحيد الذي يحمل ذاته الشاحبة وألوان ملابسه المهترئه ليظهر بالصورة المتشيغانية، وكل شيءٍ عداه يبان كرزنامة دعائية عُلِّقت على حائط أحد مكاتب السياحة والسفر في المنطقة الجنوبية للشارع، المنطقة الخطرة! وبقي هناك، منسياً من الإحساس بواقع الشارع الذي بات يتألق أكثر بكثير إذا ما سرنا قليلاً بإتجاه الشمال! حتى رمادية اللون، مفهومياً، تعربشت مع ريتشارد على حبل كيانه فلم يسقط ... بعد ... أو ربما لن ... لكن!! مثل الشبح الهارب كنت أتملص من زحمة تنفس المارة، وهواجسي تخطّط خطوات الأقدام وتوقيتها! أتمتم أحياناً "You've got to get up every morning,"

وعندما يهل المقطع الثاني، أحسّ فجأةً بـ "ثلاثين نجمة تضوي على وادي السرو"، فينشرح مسلك الرصيف قليلاً، وينتفض قلبي، وينقلب متشيغان ... مرة أخرى! وتتلاشى الألوان ... مرة تلو الأخرى. وأمسك قلمي الأحمر، علّني أبوح بشيء آخر غير الحقيقة ... مممم!! الكتابة في القلم الأحمر تلهمني بإستمرارية اللون!! محاولة اللإلتفاف على الأشياء دائماً تفشل .. يقول عقلي ثم أرى الألوان أوضح بهذا القلم القديم. ويا لهذا القلم الذي ينفجر ... وفنجان قهوة يمتلئ مرةً تلو الأخرى، مرةً تلو الأخرى، أحدّق فيه وأرى وجوهاً تتلوى، وأخرى تنتهي، ويأخذني حيثما يشاء، ربما شاء من يشاء هو يشيء فيّ

شيئاً!! هههه، عمت صباحاً متشيغان! ها أنا ذلك النزق الذي يفسد رغبتك في إقتحام قلب الأشياء، ذلك المنزلق من أمامك على مزلاجة ثلجٍ من خزفٍ صينيٍ قديم. لا تتزندق من سخريةٍ عليك، ولا تُستَفَزّ من فقدان اللَذَّة.
في الفندق المجاور، هنالك مسابقةٌ لكلاب السيرك، لا أدري ماذا يفعلون حقيقةً! لكنها مسابقة! هكذا تقول الملصقات. تأتي الكلاب ما بين حينٍ وآخر لقضاء الحاجة في الحديقة العامة المجاورة قرب السناجب التي ترتعب من العواء ومن ثم مطاردة الكلاب لها فتصعد إلى أعالي الشجر وتنتظر بضع لحظات من السلام. وتَبقى بضع حباتٍ من الفستق في يدي ريتشارد، يترقب هو الآخر لحظات سلامٍ من نوع آخر ويظل منقبضاً في مكانه كمن ينتظر الوحي. "من لم يمت بالسيف مات بغيره" أتمتمُ وحدي، ولا أنتبه لدجاجةٍ تركض في باحة ريتشارد نحو قرب نهايتها! فقوامها متوترٌ ولا تعرف إلا أن ترتعش! فأرتعش أنا. فإسقاط الوعي على كل شيءٍ أحياناً يجعلني أفسّر "كل ما يُرى وما لا يُرى"، وغالباً أحسّ بأنني بحاجة لأن لأعي الحقيقة كي تبقى مختبئةً لذّة الكشف هذه! فهنالك من لا يُفَسِّر، بل من ينقلب!
متشيغان يلبس الأبيض والأسود مرة أخرى، كأنه يئس من شقلبات اللون ... أُتركني متشيغان، أنت لست بحجم قياساتي، أنت ذلك المتسطح المنقلب على ذاته، بناياتك تتدلى من السماء كسلالم حديدية تتشربك على سلك فولاذي هش بدأ الصدأ يأكل منه ما تيسر. وإنجراف الأشياء من العمق إلى السطح يطحن إرادتك المشكولة بالرمل والعشب الأخضر، فدعني وشأني!

قال لي ريتشارد مرة: "هؤلاء الكلاب الملاعين يقتلون السناجب، يطاردونهم في الحديقة على مرأى أصحابهم ويصطادونهم كالصراصير. وأحيانا تنثر لهم بلدية شيكاغو سم الفئران وتضعه في كل زاوية ليقتل معظمها". وأردف: "مرة، جمّعتُ ستة جثث لسناجب قتلها سم البلدية ووضعتها على الرصيف كي يراها المارة. ولكن لم ترمش لهم عين، أولئك الملاعين! وأبقيتهم هناك على الرصيف حتى أتت تعزيزات البلدية والشرطة وصادرتهم بحجة عدم الحصول على ترخيص رسمي مسبق للإحتجاج. أظنها صادرتهم فقط لتُخفي الدليل! لكنني كنت نزقاً، فقد كنت قد خبئت ستة جثث أخرى وسارعت بوضعها بنفس المكان كي يراها كل المارة، ولكن لم ترمش لهم عين، أولئك الملاعين!".
وسكت ريتشارد قليلاً ثم تابع بهدوء وبطء بعد أن سرد النصف الأول من قصته هذه بسرعة متناهية كأن كل ما كان يقوله مجرد تمهيدٍ لما سوف يقوله الآن:
– حزنت وحدي. ربما لأن أولئك من يأكلون لحوم الحيوانات لا يتذكرون أنهم في الوقت الذي يأكلون فيه قطعة من لحمٍ هنالك أحد الحيوانات يسلم روحه المغتصبة من أجلهم. أولئك من لهم بيوتاً يفرضون علينا جبروتهم، نحن من لا بيوت لنا، نحن أكثر قيمة منهم لأن بيتنا أنفسنا، فهل تظن أنهم يدركون؟
– لا أظن ريتشارد، لا أظن.
– أتعرف؟ غضبي عليهم تاريخي، وسأعطيك مثالاً، لقد توقفوا عن بيع وتصنيع البطاريات الخاصة التي تستخدم لكاميرا البولورويد التي إشتريتها قبل 15 عاما. يقولون أنها لم تعد تجدي إقتصادياً وأن لها مشاكل كثيرة تضر بالبيئة، ولكني الآن لا أقدر نهائيا على إستخدام الكاميرا، مع أن هذه الكاميرات كانت قد أُعطيت لنا من قبل بعض المؤسسات المحلية كي

نستخدمها ونسجل وقائع حياتنا، وربما لتفريغ بعض ما فينا من أزمات، هكذا أظن! وأحببت تلك الكاميرا من كل قلبي، يا إلهي كم أحببت تلك الكاميرا!

– لا تقلق ريتشارد، سيشحنون ما تبقى منها للشرق الأوسط!

– لا لا، ليس هذا الموضوع، هؤلاء المهاويس يريدون أن يلاحقوا آخر ما تبقى لنا في هذا العالم ليخلقوا مبرراً لعدم إستمراريته.

حدّقت قليلاً وفكرت في نظرية المؤامرة الكبيرة وجدواها. وعندها رأيت متشيغان بالأبيض والأسود، مرّة أخرى. كان شعوراً مذهلاً، سناجب ريتشارد وكاميرته المنتهية، وهؤلاء المهاويس كما أسماهم. أما عيون متشيغان المنتحبة كالسحر، فكانت ترقص على عواميد الكهرباء، وبقايا شجر وإسمنت يخطفان الجمال المتسلل نحو أول الربيع. الحبل القرمزي كان الممر الوحيد الذي يشطر متشيغان لشطرين، شطراً للفراغ، وشطراً للفناء.

عندها مشيت وحدي، وتعلمت المرور، فعمت مساءاً متشيغان.

1995